اغتيال زعيم عربي

الدكتور

عبد الرحمن شهبندر

صفاتهُ الفكرية والخلقية وحفلة تأبينه

عند ما شرع المقتطف في نشر فصول « القضايا الاجتماعية الكبرى في العالم العربي » للدكتور عبد الرحمن شهبندر — رحمهُ الله عليه — في سنة ١٩٣٢ كانت شهرته في السياسة والخطابة والجهاد الوطني قد طبقت بلدان العرب واستفاضت الى ديار الغرب ، وغلبت على شهرته في الطب مع أن السياسة لم تحل دون تنميةٍ كل جديد في فنهِ الأصيل [1] . ولكننا لم نكن نعلم أنهُ حذق المباحث الاجتماعية وتعمق فيها لا حذق مطالعة وتعمق دراسة في الكتب فحسب بل حذق تأمل وتجربة كذلك . ولذلك كان كل فصل من تلك الفصول [2] الرائعة يجلو لنا ناحية جديدة من الدكتور شهبندر وشخصيتهِ الجامعة . وكان في معظم الأحيان يشرّف ادارة المقتطف والقلم بيدهِ فيجلس لا يشرب قهوة ولا يدخن لفافة يبسط الفكرة التي ينطوي عليها مقالهُ مبيناً ما رأي علماء السياسة والاجتماع فيها ثم يوجز وجهة نظرهِ الخاصة في تصيبهُ على الشرق تطبيقاً هذه الاصلاح العملي الموفّق . وكان يأبى الاَّ أن يصحح التجربة الأخيرة بنفسهِ فاذا كان التصحيح في مكتب المقتطف وهو الغالب فكل زيارة كانت تفسح مجالاً قبل التصحيح أو بعدهُ للبحث في رأي طريف أو كشف جديد في العلم أو رغبة في الاصلاح ، ولم يكن الفقيد في الحديث السياسي يحصر المعنى الاَّ في الأقل الأندر ، مع أن الحرية والصحة العامة والاقتصاد القومي وغيرها من موضوعات السياسة في أعم معانيها كانت دائماً في موضع الصدر من حديثهِ وعنايته

وكذلك كانت لتآمل مطالعة فصولهِ في « القضايا الاجتماعية » وسائر فصولهِ في المقتطف مثل « روح الناس » و « سر الشعر في ارتقاء الأمم » و « الصلة بين الحاضر والماضي » و « فصل من حياتي » أنهُ سياسي عظيم على اعتبار ان السياسي العظيم يجب أن يكون مدركاً ادراكاً شاملاً نسيج

[1] قد سبق للدكتور عبد الرحمن شهبندر أن كان مدير المقتطف غير مرة وحاز فيها من مكانته في فنه ما [2] وقد جمعت في كتاب على حدة بعنوان « القضايا الاجتماعية الكبرى في العالم العربي »

الحياة المتصل فهماً فهماً دقيقاً للتيارات الفكرية والاجتماعية التي لا يستطيع شعب أن يفلت من تأثيرها ولا أن يقطع صلته بها. قادراً على التفكير تفكيراً خاصاً المنطق والتجريد ولكن بغير أن يضحي بإيمان الناس وعواطفهم وحقائق حياتهم على مذبحة المنطق ومذبح التجريد، زكناً يمنح الفنون الأدبي في الشأن الخاص العام والعمل العام في القضية الخاصة، أي يجب أن يكون طبيباً اجتماعياً وزعيماً روحياً بقدر ما يكون محامياً قوي الحجة وخطيباً مفوهاً وداهية في مناورات الأحزاب والهيئات

ذلك أن ما يفعله السياسي بأسمى ما في حروف السياسة من معنى، هو شق المجاري العامة التي تتصرف فيها الحياة الزاخرة المضطربة بين الحواجز، المتقدة في خلايا الأدمغة، المتحفزة للعمل. وهو لا يستطيع ذلك الا اذا كان فهماً بين مهمته، متغلغلاً في قلوب الناس لامساً خواطرها، معبراً عنها في أقواله وأعماله مصوراً لهم المثل العليا تصويراً يحفزهم للعمل، شاعراً بالقوة التي رهن يديه وبالبدعة في استعمالها. التي يجب ان يكون خادم المصلحة العليا لا متحكماً فيها وفقاً لغرض او هوى، ناظراً الى المستقبل بغير أن تغيب عنه حقائق الحاضر، منقذاً للضمير القومي لا خاضعاً لرغبة فرد او حزب

ليس من السهل كتابة سيرة الدكتور شهبندر السياسية الآن. ولا تملك الوثائق الكافية للحكم على آرائه السياسية في موضوعات خاصة وعليها، ولكن متى أتاح الزمن الفرصة لنشر الوثائق الخاصة بنهضة العرب في القرن العشرين، ودرس نواحي شخصية الشهبندر المتعددة، فلا ريب في أن التاريخ سيعين له مقاماً في طليعة مفكريها. فاغتياله وهو في عنفوان قوته كمفكر وزعيم وطبيب، جريمة نكراء وفقده خسارة كبيرة

وقد احتفل بدمشق احتفالاً قومياً عربياً رائعاً بذكراه الاربعينية تليت فيه رسائل ومقالات وقصائد من زعماء مصر والشام ولبنان والجزيرة العربية والعراق وأدبائها وشعرائها وقادة الرأي فيها تشرحها في ما يلي كلمة الاستاذ عباس محمود العقاد والاستاذ منصور جرداق أستاذ الرياضة بجامعة بيروت الاميركية وهي المعهد الذي نال فيه الفقيد علومه العالية

---

(١) وهي رسالة صورت حياة النفس، وتوسل على سالكها أدق مشاعره، إلى أعماق قلوب غيره، وتقنع عقله وتهذب نفسه وتسمو بروحه، فتشعر وتهدي الصواب وتنير الطريق. وأعلى رسالة اجتماعية تصحح العناصر وتروج الصالح وتمحو الباطل ما كان النبي ... مصلحاً وأي مصلح. فهي هي أساس الرسالة الاجتماعي التي تعنى بها الوحدة الوطنية وهي في أداة التنظيم العقلي الذي تكسب الأمة إرادة عامة ؟ (القضايا الاجتماعية الكبرى صفحة ١١١)

١ — الشرق ومعرفة اقدار الرجال — للاستاذ النائب المحترم عباس محمود العقاد

حضرات السادة الأجلاء : كتب فقيد الأمة العربية الدكتور شهندر فصولاً شائقة عن نورنس[1] الضابط الانكليزي المشهور فلامهُ في بعض الفصول لوماً شديداً — لأنهُ سلب «السلطان صلاح الدين الأيوبي الهدية الوحيدة التي تذكرتهُ بها أوربا لأعماله الخالدة بعد ما نسيتها ثمانية قرون كاملة . وهذه الهدية هي إكليل من الذهب قدمهُ الامبراطور غليوم يوم زيارته دمشق من نحو الجيل وقد حفر عليهِ بخط عربي مبين . إن الله يحب المحسنين . وفي سرقة الأموات عارٌ ليس في سرقة الأحياء »

فهل خطر في بال الفقيد وهو يكتب هذا الكلام أنهُ سيرقد رقدتهُ الأخيرة في ذلك الضريح الذي غضب لهُ ذلك الغضب وغار عليهِ تلك الغيرة ؛ وأنهُ سيحوطهُ برفاته وذكرى حياته كما يحوط الحارس الأمين صاحب التاج في عالم الفناء

لو كان الأمر مما يفسر بالنظر البعيد لجاز ان يقال أنهُ بعد نظر من الحكيم العليم ؛ لأن هذه الصفة النادرة كانت من أوضح صفات شهندر رحمهُ الله . فلا يصغى اليهِ جليسه لحظات معدودات حتى يتبين من كلامه وسياق عبارته — دلائل الأناة والتبصر ووزن الوقائع وسبر الأغوار . وربما عزَّ على بعض الناس ان يوفقوا بين هذه الصفة الواضحة فيه وبين اقدامه وطموحه الذي يشبه لهم صفة الهجوم وقلة المبالاة ؛ أو صفة الخيال والجموح مع الأحلام . ولا داعي للاشتباه في الحقيقة لان معرفة الواقع لا تقتضي الرضى بهِ والاستكانة اليهِ بل قد يعرفهُ المرء ليعرض عنهُ ويتخطاه ويحاول تبديله ، فيلوح لمن يراه كأنهُ ينسى الواقع ويتعلق بالأوهام وهو في صميم الأمر عالم بالواقع لا يجهله ولا ينساهُ ولكنهُ يجتزىء عليهِ لأنهُ قد أوتي من النشاط الحيوي ما يدفعهُ الى الحركة ويناًى بهِ عن السكينة والاستقرار . وكذلك كان الدكتور شهندر رحمهُ الله ممن يتمردون على الواقع عالماً بهِ لا غافلاً عنهُ وهو مع ذلك مطبوع على التبصر والأناة وسبر الاغوار

وقد اجتمعت له أسباب ذلك من فطرته ومن تربيته ومن تجارب حياته

فهو بفطرته رجل أعمال لا يأخذ من الأشياء والحوادث إلا بمقدار ما يزجهُ عملاً قابلاً للانفاذ والاختبار ولا يمنع هذا أن يكون انجازه مقروناً بمشقة والاقدام

وهو بتربيته قد نشأ على المعرفة الادبية والمعرفة العلمية فلا هو محصور في معمل التحليل ولا هو مشغول بالألفاظ ولكنهُ رجل يعيش في حومة الدنيا بدقة العالم وأريحية الأديب ،

(١) مقتطف يوليو ١٩٣١ صفحة ٣٧

وبهندي مستشارين أحدهما صاحب صراحة النمر وقد بهم جرب جرأة الأدب ويندر أن يغلب هذه أحد المستشارين على أخيه

أما مجاربه فمن ذا الذي يصاحب الغصبة العربية ربع قرن ولا يخرج منها حافل الوطاب بتجارب الجماعات والأفراد، ومن ذا الذي يلقى الموت مرات ولا يعلم ما هي الحياة، ومن ذا الذي يلابس الناس في أيام الفلاقل والنواهض القومية ولا يعرف مدى الأمل والقنوط، وغاية الهدء والصموح وغاية الاسفاف والركود، ومن ذا الذي يكون عربيًّا حقًّا في الجيل الاخير ولا يكون انسانًا حقًّا بصيرًا بما في الطبع الانساني من أخلاق ونزعات وحركات وأطوار؟

ولست أدعي حق الحكم على سياسة الفقيد الكبير في شؤون العربية فلست على علم وثيق بتفصيلاتها في مختلف الأدوار ولكني أرى في ما قرأته له او سمعته منه في شؤون السياسة والاجتماع مثلاً في السداد وحسن التقدير

فمن أصدق الموازين للحبة الوطنية قوله ان الاستقراء قد دلني لا في الشرق والغرب على ان معيار حب الاستقلال في الأمة انما يكون على قدر حرمتها للغتها وسعيها لاتقانها. وان الذي لا يغار على لغته لا يغار على أمته »[1]

فهذا ميزان للوطنية لا نعرف ميزانًا أصح منه في الدلالة على الوطنية الصحيحة فان حب الوطن بمعنى حب السكان خصيصة يشترك بها الانسان والحيوان أما الوطنية التي تتعلق بالروح والعقل والضمير فتلك هي وطنية الانسان الناطق او وطنية الامة التي يجمع لها زمانه ومكانه في ماض وحاضر ومستقبل منصور

ومن الصواب الذي دعوته الى التجانس بين العرب في الثقافة والشؤون الاجتماعية . فمن التفرق في العادات والأفكار حين لا تتحقق معه الوحدة والاتحاد

ورأيه في المرأة يمم تراثي الحكيم الذي لا يجاري شطط العرب ولا تكوص الجامدين وكان صريحًا في هذا الرأي سمعناه ما كتبه في مقالات او تحدث به في كلامه . ولكنه كان يتحرى الدقة في أحاديث المجالس فلا يسلم كل انسان جزافًا في بعض هذه المسائل

فمن مرة سيدة ذكية في عرض القضية بعض الأمور والخلاصة في رأيها كما أرجحتها الا أن تكون بقية من بقايا تقيودها في صغرها بعشرات النساء

قالت السيدة وهي تعبر عن رأيها وقد عهد اليها في رقة الا أن تكون بقية من الذي جرى به قدم معشر الرجال

وكان من الحد الذي انتهت به رحمة الله يزيح من هذا الموضوع في مجالسه بين الأصحاب والأدباء وله من ذلك طرائف يتحدث بها عارفوه

(١) من مقال الكبير عنه الكبرى في العلم العربي ، صفحة ٧٠

وقد كان آخر عهدي به أن نفيه باحدى المكتبات في القاهرة فسألني عن مصر وسألته عن الشام كيف يسلك أهلوها في المحنة الحاضرة — محنة الحرب الاوربية التي توشك أن تنقلب حرباً عالمية لا يخرج منها موضع ولا قبيل

قال ان العقلاء يعرفون الحقيقة ويدركون أن انتصار الحرية خيرٌ للقضية العربية من انتصار الدول التي لا تؤمن بحق الحرية لشعوبها فضلاً عن الشعوب الشرقية وبدا عليه الالم وهو يقول « يا أخي : هذه الدول سرطان ومنذا الذي يشفى السرطان ولو كان يشكو ذات الرئة »

قلت يا دكتور طبيب حتى في السياسة ! فكيف العلاج ؟ فابتسم ابتسامة حزين وقال : ربنا يلطف . . . وكان هذا آخر عهدي به ، حتى سمعت نعيه بين الشك واليقين ، ثم غلب اليقين كما تغلب اخبار السوء في كثير من الأحايين

يا للعجائب في هذه الدنيا . . . . . أما إعجاب الرجال الأفذاذ فشيء تعي به جهود الايام وأما القضاء عليهم فشيء تستطيعه شرذمة من الطغام

سبحانك اللهم لك فيما تريد حكمة . ولعل من حكمة هذا المصاب ان يعرف الشرق أقدار الرجال

---

٢ — نشأته الفكرية والخلقية في جامعة بيروت الاميركية

للعلامة منصور جرداق
استاذ الرياضة العالية فيها

في أواخر القرن الماضي دخل الكلية السورية الانجيلية ببيروت (الجامعة الأميركية الآن) شاب طويل القامة متين البنية اسمه عبد الرحمن صالح شهندر تلوح على محياه علامات الذكاء والنباهة واللطف والوداعة ودماثة الأخلاق . وشاءت الأقدار أن ينضم الى صفنا فصرنا معاً في الدائرة العلمية وانتهينا في تموز (يوليو) ١٩٠١ نائلين معاً رتبة بكلوريوس علوم ثم غاب سنة استجماعاً للقوى ورجع عبد الرحمن الى الكلية ودخل الدائرة الطبية حيث صرف أربع سنوات ونال صيف ١٩٠٦ رتبة دكتور في الطب

وبما انه كان الأول في صفه وممتازاً في دروسه فقد عين بموجب القانون خطيباً عن صفه وطبيباً للمدرسة عام ١٩٠٦ — ١٩٠٧ وهكذا تسنى لي أن أصحبه مدة تسع سنوات كنا في خلالها صديقين حميمين يجمعنا حب المعرفة والدرس والفلسفة والرغبة في خدمة الوطن خدمة صادقة شريفة لخدمة زهرة الشبيبة وتهذيبها وتثقيفها ونشر العلوم الصحيحة بين أفراد الأمة وتسهيل تحصيلها لطالبيها ولذلك أنشأنا في سنة ١٩٠٧ « جمعية تهذيب الشبيبة السورية » التي كان قد أنشأها طلبة الكلية لتلك الغاية السامية كما تشهد تقاريرها السنوية المحفوظة في مكتب الجمعية

لقد كان عبد الرحمن مثال التلميذ النجيب بجده واجتهاده وذكائه ونباهته وحدة ذهنه

ومثابرته على الدروس والمطالعة واقتصاره بكليته على واجباته المدرسية والقيام بها خير قيام وطاعته التامة للقوانين لأنه كان يتقدس الواجب ولا يتهاون في شيء مهما يكن زهيداً وطفيفاً عملاً بالمثل القائل « التقصير في الأمور الزهيدة نقص خطر ثقيل ويصده عن الوصول الى درجات الكمال ». أضف الى ما ذكر ذاكرة قوية وسرعة خاطر وخيالاً فسيحاً خصيباً وتصوراً سامياً دقيقاً ودوقاً سليماً وضميراً شريفاً للتفوق وهمة عالية وارادة قوية وروحاً عظيمة في النظر والتقصي والتدقيق والتحليل والجمع — صفات رجال العلم في كل عصر ومصر

ناهيك بتضلعه من اللغة العربية واطلاعه الواسع على تاريخ آدابها وتاريخ الاسلام وعلومه التي يتعلق ببيانها وبلاغتها وفصاحتها وهذه الأسباب والبواعث شخصيته الممتازة فتخيرته الجمعية العلمية العربية بأكثرية ساحقة ليكون خطيبها الأول في احتفالها السنوي سنة ١٩١٠ دون ان يسعى اليه أو يكلم أحداً ليؤيده في الانتخاب. وكذلك اختارته عمدة الكلية وهو بعيد في الدائرة العلمية تمثل المدرسة تمثيلاً رسمياً وترحيب بخليل باشا وفي بيروت والصدر الأعظم سابقاً في أثناء زيارته الرسمية للكلية بالمنتدى الكبير وقد كان لخطابه وقع جميل في نفس كل من سمعه مما حمله على بذل الجهد لتخليص عبد الرحمن من النفي الى فزان « فريقية بسبب وشاية من أحد جواسيس السلطان عبد الحميد في ذلك الحين

أما صفات القيادة العربية وأخلاقه فقد كانت سامية جداً في نظر التلامذة والمعلمين والأساتذة لأنه كان سيداً عربياً عفيفاً متزناً طائعاً للقانون محباً للعلم محب الخير لجميع بني البشر ومساواتهم في الحقوق والواجبات ويستمد توجيهه من عقيدته الوطنية والقومية والواضع الأساس وابن الدريكة والشهم والأمين وعزة النفس وسمو المبدأ وسعة الصدر وكرم الأخلاق يلهم الزكي لبيه ويحفزه لسير على اعلاء شأن فكرة وحماسة ويدفعه وطنية وحب لجميع لاعتقاده الراسخ ان الأمة كالجسم الحي ولكي تكون بصورة صحيحة سليمة يجب ان تستفيد من قوى جميع افرادها وان كانت خطيرة وتتبين الاقوى والمضر وتصيرها الضعف والتخاذل والتأخر والموت والزوال

هذه صفات القيادة وعقده والأدبية التي في تعبير عنه [illegible] أودّ أن أشير في الوقت الذي أرد فيه [illegible] في تقييد الكلية من [illegible] في الأمة وتقدمها [illegible] للنهوض بالوطن من كبوته [illegible] الى الكلية [illegible] خرى رسالته السامية [illegible] الى تم الأرض [illegible] الفتح العربي الاسلامي